النقاد الجديد

الجنون بطرق مختلفة

دراسة في (مجنون الورد) لمحمد شكري

بقلم : صدوق نورالدين

إن صياغة منطلق يرمي الى محاورة شكري من خلال قراءة مجموعته (مجنون الورد) ، من المهمات العسيرة التي تثير عدة عقبات من الأهمية ايجازها . باعتبار أن طرح هذه القراءة في غيبة تجسيد تلك العقبات ، لن تكون له دلالته الإيجابية ، ومهمته الأدائية في الوقت نفسه .

فعالم شكري القصصي عالم تركيبي ، ذلك اننا نقف على نموذج ابداعي موحّد ، كما اعتدنا ذلك في نماذج القص المغربي ، وانما الملاحظ أن شكري يوازي في ابداعاته بين القصة الإجتماعية والنفسية والسياسية نسبياً ، في محاولة لترصد اللحظات وليس الانفكاك من آسارها . وفي ذلك التوازي يضبط أشكالاً تلائم الظرف القصصي ، اذ المهم لديه ليس الكتابة بالشكل الواحد ترصداً للحدث ، وانما الحدث يملي طبيعة تشكيل البنية الفنية . وأمام هذا التعدد يجد النقد مهمة التشريح عسيرة ، اذا ما ألمحنا لكون النقد الأدبي في المغرب لم يمنح شكري المكانة التي يستحقها بموضوعية ، كما حدث بالنسبة للذين ينتمون لجيله ، الى جانب هذا ، فان المقدمة التي كتبها الدكتور محمد برادة كتقديم لمجموعة (مجنون الورد) ، لامست معظم الخفايا التي تبلورت ضمن ثناياها . وبذلك فمهمة قراءة المجموعة تبدو عسيرة ، خاصة ان ما سأقوم به يعكس وجهة نظر تتفق مع عدة أشياء قيلت بصددها ، ولا أعتقد أنني سأرددها .

إن فنية شكري الإحتوائية تعتمد تقنية الجمل القصيرة التي تلمّح ولا تذهب الى أبعد منأى ، اذ من خلال ذلك التلميح تنكشف الخلفيات المضمونية التي يرغب شكري البوح بها ، حتى انه في بعض الأحيان يكسر جمله القصيرة تكسيراً له فعاليته وخدمته النصّيّة . ذلك ان تقنية الجمل القصيرة ومن خلال المجموعة ، أدت الى التعامل مع المتواجدات بطريقتين :

- وصف الاشياء مجردة دون وسيط .
- اغفال عنصر التخييل كمبدأ يضفي على النص القصصي جمالية وفنية .

وبذلك فنصوص المجموعة اعتمدت الوصف تحديداً للمكان ، الذي يكاد في الغالب يكون رئيسياً . في حين نرى أن أبطال المجموعة لا يحلقون خارج قفص التهميش ، عكس ما يتجلى في نتاجات قصصية ترصد اهتمامها للبورجوازية الصغيرة في تطلعاتها وآمالها واخفاقاتها . من ثم فإن شكري في عالمه القصصي المتجسد في (مجنون الورد) ، اختار نماذج بشرية لا وزن لها على صعيد الفعالية الانتاجية ، ليصب في جعباتها ما يريد الافضاء به ، سواء على الصعيد الاجتماعي ، أو في ترصّد الحالات النفسية أو الملاحقة السياسية . والملاحظ أن أسلوب الحكي القصصي لدى شكري يعتمد شاعرية رهيفة تضيع في لحظات التعامل مع الاشياء بكيفية مباشرة ، خاصة أنه لا يغذيها بالتوظيف الخيالي . وبذلك فإن تقنية شكري من خلال (مجنون الورد) تقنية حدث ، تقنية ما هو داخلي ، وليس ثمة أي تجاوب مع تقنيات خارجية . ولعل ذلك يعود الى الرصيد المعرفي الذي كوّنه شكري لذاته ، وهو بطبيعة الحال رصيد تمازج واختلاط وليس تفرد ووحدة ، ولعل ذلك ينكشف أيضاً من مجموع المضامين المتناولة ضمن (مجنون الورد) .

وتقوم المجموعة في بنيتها الدلالية على الانتقاد الرامز وليس المباشر ، ذلك أن شكري في تعامله مع أشياء الواقع ، لا يختار المباشرة أو التعاملات التي تحتضن الواقع ولا تنفك منه الا بعد أن تكتمل مناعة الرؤية ، وانما في ظل ترصّده لحالات الجنون وغيرها ، يرمي بلقطات تجسّد ما يتضمنه الواقع من عفونة دون الاستمرار في التحليل والتشريح . فهو يرى أن عالم اليوم لا يقوم فيه الانسان بدور فاعل ، خاصة ان قيمته الوجودية مستنفدة ، الى جانب كونه رهين أناس يفعلون به ما يريدون ، بمعنى مسلوب الحرية (ان عالم اليوم هو بقول الغد . إننا بعرات يكورها طابور من الجعلان المتدحرجة) . وفي ظل هذا

الإحساس يتولد انعدام الرضا الذي يؤدي بالإنسان الى الجنون ، إذا ما ألمحنا لكون البعض يفسر مثل هذه الحالات بتواجد البطالة ، وهو تفسير في عمقه قائم على التغليط ، أو لباس الحقيقةلباساً سلبياً(ـ كلا ما أظن . كان زماننا أكثر بطالة من اليوم . مع ذلك لم يكن يجن أحد بسبب البطالة . إن عدم الرضا يتلف أعصاب الناس . القناعة هي العقل) . وبذلك يجد الإنسان نفسه مسلوباً من احقيته في العيش ، وما يملكه في حقيقة الأمر هو الروتين الاعتيادي : الخروج قصد البحث عن الأكل ما دامت وسائل الانتاج في ملكية طبقة معينة ، عدم وجود ما يؤكل ما دامت هذه الطبقة المعينة المستفيدة الوحيدة ، مع أن عملية البحث عن الأكل وسيلة من وسائل التيه والابتعاد عن الحقيقة (زبل لا يباع . زبل لا يؤكل . زبل لا يصان . لكنه لا يجد أي عمل آخر يفعله غير أن يأتي الى الشاطىء في الصيف كل صباح . وأحياناً في المساء) . وعلى الرغم من ذلك يظل هذا الإنسان متشبثاً بأحقيته في الحياة ، في التواجد ، في العطاء . حتى ولو لم يكن يملك ما يستقبل به أبناءه في هذه الحياة ، خاصة أنه يعي كيفية انتشال الأموال ، دون أن يبيع هؤلاء الأبناء ، إذا ما أكدنا انه يفضل بيع نفسه على أن يلحقهم شيء .

(كم تريد ؟

ـ تريد ثمن الولادة في مستشفى جيد ومبلغاً بسيطاً لتعود إلى مدينتها « خنيفرة ») .

(أفضل أن أبيع نفسي من أن أبيعه) .

وبذلك فمحنة الانسان الكادح هي ذاتها محنة الانسان الواعي المتفهم لحقيقة الأحداث ، والذي لا يكتفي بالرؤ ية من بعيد ، وانما يلتجىء الى امكانية استخدام الكلمة كسلاح قصد التعبير عن ظروفه ومعاناته وما يلحق الآخرين المسحوقين ، الا انه في ظل استخدامه لوعيه يعاني من عدة أشياء تلحقه ، هذه الأشياء التي تجسد الوعي المضاد أو النقيض ، ليقتاد الانسان ككل الى تعذيب نفسي يؤدي به الى الجنون ، خاصة حينما يفقد روابط التواصل والعلاقات الانسانية (عماروش التمساني . ممنوع التعامل مع هذا الشخص في جميع الظروف . وكل من يخالف هذا التحذير سيعاقب بموجب القانون الصادر في حالة التعامل معه) . إذ أن مستوى الوعي المعبر عنه يدل دلالة عميقة على أشياء خارج الاعتياد، خارج الروتين اليومي ، فتتم بذلك محاكمة النية والضمير الإنساني ، بتهمة قد لا تتعلق بما سبق التطرق اليه ، وهي دعوة الى جنون آخر ، بشكل مغاير .

(أمن اجل كتابة مقال عن التسول يحدث كل هذا ؟)

(لقد سخرت من الناس أكثر من اللازم) .

وفي ظل محنة المعاناة السالفة الذكر ، يتولد الاعتقاد بقدرات غير إلهية، كمتنفس لما يعاني منه الإنسان من حرمان بشع ، إذ داخل هذا المتنفس، يمارس حياة مغايرة بعيدة عن الواقع الانساني ، بالتالي عن ظروف التخبط والروتين الإعتيادي . خاصة في حالة مصادفة قناعات إنسانية أخرى تعتقد المُعتقد نفسه حيث لا أهمية للوعي الموجب ، الذي يمكنه تحويل (الممكنات السالبة إلى موجبة فاعلة ، ولعل في موقف كهذا يتضح أثر الوسط الاجتماعي على الفرد ، خاصة اذا كان ضعيفاً لا يقوى على المواجهة) .

(« لقد رآه محمد ـ وهو رجل تقي كما تعرفون ـ يقبل عشيقته عروس البحر التي تجيء اليه كل مساء من أعماق البحر » . « أبوه أيضاً ـ رحمه الله ـ تزوج جنية البحر ») .

(ـ لكن لن يضره مفتاح في يده . مفتاح فقط . ضعوا له مفتاحاً في يده . مفتاح في اليد يضر) .

إن الإنسان في (مجنون الورد) سواء في كدحه أو وعيه أو اعتقاداته ، يمارس الجنون بطرق مختلفة . وفي ظل هذه الممارسة تتولد الاحساسات النفسية ذات الطابع الوجودي ، كما يتضح في بعض قصص المجموعة . وبذلك فإن المهيمن على تضاعيف (مجنون الورد) ليس انتقاد متضمنات الواقع ، وانما تشريح الحالات الانسانية ، بكيفية تهدف إلى اثارة القرف ، والشعور بالعبث واللاجدوى . وبذلك فواقعية شكري ليست سوى واقعية تعرية وكشف للحالات الإنسانية ، إذ من خلال هذه التعرية تتم عملية الإيحاء الانتقادية في ضمير المتلقي ، باعتبار أن الإيصال لا يتحقق إلا في مرحلة الإستيعاب التام والمحقق لخفايا النص .

والمجموعة من الوجهة التاريخية تأكيد لبدايات الغزو الأجنبي في لباسه الجديد (ـ لم يعد لهذه المدينة جمرك . إنها مثل « فندق » الحمير . مدينتنا تشوهها كل يوم وجوه لا نعرف من أين تجيء إلينا .) ، إذا ما ألمحنا لعواقب هذا الغزو والتي تتجسد أبعادها على المستوى الاقتصادي ، حيث التبعية للمعسكر الليبرالي ، بالتالي هيمنة الطبقة المتوسطة المتطاولة في تواجدها الى جانب هذه التبعية ، لتبقى فعاليات الإنتاج مسلوبة من الأيدي التي تستحقها . وتبقى (مجنون الورد) ابداعاً قصصياً يؤكد إضافة هامة للحقل الأدبي العربي(*) .

آزمور / المغرب

(*) صدرت (مجنون الورد) عن دار الآداب ، بيروت